

النبي محمد (ص) حامل لواء الوحدة الإنسانية السباعية

النبي محمد (ص) حامل لواء الوحدة الإنسانية السباعية

الأستاذ محمد جميل قلندر

رئيس مؤسسة "قُل" العالمية (QUL)

إسلام آباد - باكستان

يقول الحكيم الشرقي العلامة اقبال إن "نبي الإسلام يبدو أنه يقوم بين العالمين: القديم والجديد. أما فيما يَهْتَمُّ بمصدر وحيه فهو يعود وينتمي إلى العالم القديم وأما فيما يتعلق بروح وحيه فَهَوَّ يعيش العالم الجديد، وفيه تكتشف الحياةُ مصادرَ أخرى للمعرفة لوجهتها الجديدة". (ص 100 - 101) هو ينقل للمؤرِّخ والباحث الغربي ج. ه. دينيسون (Denison .H .J) قوله هذا: "كان يبدو أن الحضارة الكبرى ألتى قد استغرقت أربعة آلاف سنة لبنائها كانت على حافة الاندثار وأن البشرية كانت على وشك العودة إلى حالة البربرية حيث كانت كل قبيلة وطائفة تقوم ضدَّ الأخرى وان النظام كان قد اصبح شيئاً مجهولاً، وان القيود والصواب القبايلية القديمة قد فَقَدَت حُكْمَهَا ولذلك فالطرق والأساليب الملكية القديمة لَمْ تَعْدَ تشتغل وإن الصواب والحدود التى انشأها الديانة المسيحية كانت تعمل التفرقة والتمزيق بدلا من الوحدة والنظام، وكان ذلك زمنا محفوفاً بالمآسي. وإن الحضارة - كشجرة عظيمة كانت قد أُوْرِفَتْ باغصانها على العالم وحملت ثمارا ذهبية من العلم والأدب - كانت قائمة تترنِّج، وجِدُّعها لم يَعدْ حَيًّا بِنُسْغِ الولاء والتقدیس، بل كان قد تعفَّن وذبل إلى صميمه مُمَزَّقًا بزوابع الحروب، ومتماسكا فقط بحبالالتقاليد والقوانين القديمة التى كان يحتمل أن ينهار في أى لحظة. فهل كانت هناك أي ثقافة عاطفية كان يمكن الإتيان بها من أجل أن تجمَّع البشرية في حن "التوحيد" وتنقذ الحضارة؟ وإن هذه الثقافة كان لا بد أن تكون من طراز جديد لأن القيود والصواب القديمة كانت قد أصبحت ميتة، وإن إنشاء الأخرى ذات نفس النوعية سيستغرق عمل قرون" (ص 116 - 117) وهو يستدطرذ قائلا على حد تعبير العلامة اقبال ان العالم كان بحاجة إلى ثقافة جديدة لكي تحتلَّ ثقافة العرش الملكي (الدكتاتورى) وأنظمة "التوحيد" المبنية على العلاقات العمَـصَـبِـة.

وما يد هشنا - كما يعبر عن ذلك العلامة اقبال - أن هذا المؤرخ والباحث الغربي الكبير يفيدنا بأن مثل هذه الثقافة كان يجب أن تنبَعث من الجزيرة العربية، وذلك في زَمَن كان هناك حاجة ماسَّة وملحَّة إليها. ومن الجديد بالذكر أن ذلك الزمن كان قد تدهور فيه مفهوم الدين إلى أن أصبح

على حدّ تعريف الأستاذ جيمس درمستتر (Dermesteter James) له " ما يشتمل على كل معلوم وكل سلطة لا تتفق والعلم".

إن الملاحظات المشار إليها آنفاً للأستاذ ج. ه. دينيسون يخلُص منها العلامة اقبال إلى قوله المَثَلِي بأن "هذه الثقافة الجديدة تجد أساس الوحدة العالمية في مبدأ 'التوحيد' وإن الإسلام كسياسة مدنية ليس إلا وسيلة عملية إلى جعل هذا المبدأ عاملاً حياً في الحياة العقلية والعاطفية للبشر".

ماذا تفيد هذه الملاحظات وتعليق العلامة اقبال عليها؟ هي تفيد بأن فكرة "التوحيد" في الإسلام لا تعني - كما يزعم الزاعمون - مُجَرَّد توحيد (الإله) مع تفرقة خلقه وعباده لأنّ ليس عبارة عن مجموعة افراد أو اجزاء حتى يحتاج إلى توحيدها، وهو الأحد الواحد مسبقاً سواء يعترف به المعترفون أم لا، وهو غنيٌّ عن العالمين، فمجرد الدعوة إلى توحيد (الإله) تحصيل حاصل، ومغالطة منطقية، بل هي أصلاً تعنى توحيد كلمة البشرية بهدف حصول اجماعها على وقاية وصيانة العمران الإنساني والحضارة والثقافة البشرية بثمارها من العلوم والمعارف والفنون والآداب.

نعم، إن فكرة "التوحيد" في الإسلام هي ترمي إلى هذا الهدف المنشود النبيل والجميل. ولعل خير شاهد على ذلك من شهداء العقل الغربي اولا هو الأستاذ العلامة مارغوليوث (Margoliouth) الذي قال في كلمته التمهيدية لترجمة القرآن الفصيحة والبليلة باللغة الانجليزية للأستاذ النابغة العقبري الكبير ج. م. رود ويل (Rodwell .M. J.): "ان القرآن يتمتع بميزة وهي أنه يشكّل نقطة بداية النهضة الأدبية والفكرية الجديدة التي أثّرت تأثيراً قوياً في أجود العقول وأخصبها ثقافة من بين كلا الشعبين: اليهود والنصارى في القرون الوسطى وان هذا التقدم العام للعالم الإسلامي قد تعرقل إلى حد ما الا أن البحوث قد دلّت على أن ما امتلكه الباحثون الأوروبيون من معرفتهم بالفلسفة الاغريقية والرياضيات وعلم الفلك وما شاكلها من العلوم خلال قرون عديدة قبل النهضة العلمية كله مستمدّ من البحوث اللاتينية المبنية نهائياً على الأصول العربية وكان ذلك هو القرآن الذي أدلى بأول حافز إلى هذه الدراسات بين العرب وحلفائهم وظهرت البحوث اللغوية والشعر وفنون الأدب الأخرى على إثر نثر القرآن أو متزامنا معه وان الحركة الأدبية المنطلقة بهذا النحو قد أدت إلى ظهور بعض أجود انتاجات النبوغ والعلم".

و ثانيا ما قال الأستاذ ج. م. رود ويل الآنف الذكر في مقدمته لترجمته المذكورة: "ان الرعاية السذج البسطاء والبدو الرجل في شبه الجزيرة العربية تحولوا - كأنه بعضا السحر - إلى مؤسسي الامبراطوريات ومعماري المدن وجامعي المكتبات أكثر ممّا تم تدميرها في البادية، حيث ان المدن كالفسطاط وبغداد وقرطبة ودلهي تشهد بالقوة التي كانت أوروبية المسيحية ترتعد على قدميها".

لقد جرى القول مجرى ضرب المثل في اللغة العربية: "تعرف الاشياءُ بأضدادها؟ ان التوحيد كما بَيَّنَّهُ النبي محمد (ص) قولا وفعلا ويجري ويسري مضمونه في وحيه القرآني من البداية إلى النهاية جريان وسريان الدم في عضوية الإنسان، وكما أتى تبيانَه وتمثيله في السنة النبوية (على صاحبها ألف صلوة وسلام) وسنة خلفائه الأئمة الاثنى عشر هو ضدُّ الشرك. وما ادراك ما هو الشرك؟ ان الشرك - كما يدل عليه صَرَاحَة وكناية وضِمْنًا وأمرا ونَهْيًا وبصورة مباشرة وغير مباشرة جميع الآيات القرآنية - هو التفرقة والضرار والارصاد من أجل بث الفتنة والفساد في الأرض وسفك دماء الأبرياء - المفهوم الذي يستفاد صراحة وكناية من سبع مجموعات من الآيات القرآنية على وجه التحديد، تؤكد على عروة ورابطة (الوحدة والتوحيد) الجارية والسارية في الخلق، وهي تدل على الترتيب على:

(1) وحدانية (الألوهية) كمصدر خلاق ومُؤدِّبٍ لِلأمرالكوني العظيم (directive & creative) (creation & direction). والأمر الخلق مصدر وحدانية: يُأ (source of grand cosmic plan).

(2) وحدة الكون (بما فيه من الكائنات) كنظام كوني واحد يدلُّ عليه لُغويًا الكلمة الإنجليزية المركبة (verse-uni) والكلمة اللاتينية - اليونانية cosmos كلتاها مرادفة لـلكون، وتعني لُغويًا النظام الكوني الواحد.

(3) وحدة عائلة الأحياء النباتية والحيوانية بما فيها "من" يَدْرِبُّ من الدواب على الأرض و"من" يطير بحناحيه من الطيور، يعتبرها القرآن الحكيم أمّماً أمثال البشر. ويتحدث النبي محمد (ص) عن النخلة مُخْبِراًً بأنها "عَمَّسَة" البشر، فيأمُرُ المؤمنين: "اتَّقُوا فِي عَمَّسَتِكُمْ"

(4) وحدة أصل جميع الأحياء العاقلة وغير العاقلة، وهو "الماء" كمصدر أولي (primary) البشر خلق الحكيم القرآن اعتباراً "حد إلى (secondary source) ثانوي كمصدر "واحد نفس" و ، (source) وبعثهم كنفس واحدة. بعبارة أخرى، كـلا الماء والنفس الواحدة اصل مشترك لجميع الأحياء. يتحدث الفيلسوف العرفاني ابن عربي عن "شجرة الكون" (كما سمى كُتَيْباً له بهذه التسمية)، والتي نبتت ونمت وتفرعت من بذرة / بيضة واحدة. ويتحدث النبي محمد (ص) عن وحدة الخلق ويقول: الخلق عيال [١]. ومن البديهي لـ"غوي" أن كلمة (الخلق) أعمّ واشمل من كلمة (الأحياء)، فمن ثمّ يتكلم القرآن عن [١] ويُعرّفه بأنه "ربّ العالمين" ما يدلّ على جميع (العالمين).

(5) وحدة البشر مع أخُوَّةِ (المؤمنين) منهم. يصرّح القرآن الحكيم بأن الناس كانوا أمة واحدة وهُمُ أصلًا أُمَّة واحدة إلا أنهم اختلفوا من بعد ما جاءهم (العلم) التحليلي - العلماني المبني على فساد (الكسب والصُّنع) الذي ابتعد بهم عن "دين" (الفطرة) المولود عليها كُـلٌ وليد وعن "مدينة" (المعرفة والتعارف)، كما عرّف القرآن الحكيم المؤمنين بأنهم "إخوة" وهُمُ أُمَّة أُخْرِجَتْ للناس.

(6) وحدة النبوة والرسالة وعدم التفريق بين [١] ورُسُلِهِ ووحدة الأديان والكتب السماوية.

يصرّح القرآن بانه:

١. ما من أمة إلا خلا فيها نذير





مُخَطَّطَه ذَلِك بِرَجْعِهِ (آدم) مهبط العلم الموسوعي المحيط بسلسلة (الأسماء) كُلاَّيْهَا، الدالَّة على (الأشياء) من الأزل إلى الأبد. كشرط ضروري مَبْرُورٍ لخلافته الأرضية. وإن مهمَّة منصب (ال خليفة) قد فَسَّـرَهَا وَعَلَّلَهَا بِإِجْرَاءِ الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ الْمَبْنِيِّ عَلَى عَدَمِ اتِّبَاعِ الْهَوَى كَمَا تَنْصُّ عَلَى ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ: "يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِإِذْنِ الْعَدْلِ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ" (السورة 38: 37).

فإن (الخليفة) - كما يعرفها وحي النبي مُحَمَّدٌ (ص) - أمر منصوص ومفصَّوٌّ من إِبْنِ تَعَالَى وَمَشْرُوطٌ بِتَوَاجُدِ الْعِلْمِ الْمَوْسُوعِيِّ وَالْحِلْمِ وَالْعَدَالَةِ مِنْ أَجْلِ الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ الْمَوْسُوعِيِّ. وَإِنَّ "الْخِلَافَةَ الْأَرْضِيَّةَ" الْقَائِمَةَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ قَدْ تَسَلَّسَلَتْ بَعْدَ رُجُوعِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ (ص) إِلَى حَبِيبِهِ وَرَفِيقِهِ الْأَعْلَى مَتَمِّثًا لَهُ فِي مَوْسَعَةِ الْإِمَامَةِ أَيْ إِمَامَةِ الْأُمَّةِ الْإِثْنِي عَشَرَ مِنْ ذُرِّيَّةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ (ص)، وَذَلِكَ حَرْمًا فِي، وَإِبْقَاءً عَلَى نِظَامِ الْعَدْلِ فِي الْعَالَمِ وَوَقَايَةً وَصِيَانَةً لِلْعَمْرَانِ الْبَشَرِيِّ وَالْحَضَارَةِ وَالثَّقَافَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ مِنَ الْفِتْنَةِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ، لَا سِيَّمَا فِي طُرُوفِنَا وَأَوْضَاعِنَا الرَّاهِنَةِ الَّتِي قَدْ وَطَّئَتْ فِيهَا الْإِنْسَانَ قُؤَاهَا لِإِجَادِ وَسَائِلِ الدِّمَارِ الرَّهِيْبَةِ الْمَهِيْبَةِ - الْوَسَائِلِ الَّتِي قَدْ أَصْبَحَ بِمُوجِبِهَا مُسْتَقْبَلُ الْإِنْسَانِ عُرْضَةً لِحَطَّارٍ وَتَهْدِيدٍ عَظِيمٍ نَاتِجٍ عَنْ صِرَاحِ الْعُقُولِ (wits of battle) وَتَنَافُسِ الشُّعُوبِ وَتَلَاعُبِ الطَّبَائِعِ، الْمَبْنِيِّ عَلَى الْاِعْتِبَارَاتِ وَالْأَوْلُوبِيَّاتِ الْمَادِّيَّةِ التِّجَارِيَّةِ. فَالْإِنْسَانُ الْمَعَاوِرُ أَشَدَّ حَاجَةً مِنْ ذِي قَبْلِ إِلَى مَوْسَعَةِ الْإِمَامَةِ الَّتِي هِيَ حَبْلُ الْإِمَامَةِ الْمَمْدُودِ الَّذِي أَمَرْنَا بِالْاِعْتِمَادِ بِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرُّوا" .

إنَّ مَوْسَعَةَ الْإِمَامَةِ قَدْ أُشِيرَ إِلَيْهَا صِرَاحَةً وَكُنَايَةً فِي وَحْيِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ (ص) فِيمَا يَلِي مِنْ آيَاتِهِ الْمُبَارَكَةِ:

v

هُلَّ الْوُعُقَاقَ فِي حَوْزٍ نَمِيهِ يَفُوتُ خَفَازٌ مُتَدِيرٌ وَسَافِيزٌ  
سَاجِدِينَ

v

نَيْبٌ مُمُكَّاحٌ فِي ضُؤَارٍ فِي نَفِيدٍ لَخْلَخٍ لِنَلْعَجَانِ نِدَاؤِ دَالِي  
النَّاسِ بِالْعَدْلِ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى

v

لَهَّ سَلَاكُ كَلَاءِ مِ الْأَسْمَادِ مَسَلَاءِ وَ

v

نَيْبٌ مُمُكَّاحٌ فِي نَفِيدٍ مَدَايِيهِ سَلَاكُ وَ

v

كَتَابَا مُنْفِيدٍ مَدَايِيهِ سَلَاكُ وَ

v

مَهَامَ مَرِيَابِ سَلَاكُ وَ عَدَدَ نَمُؤِي

v

لَقَفَ فَنُهَا تَمَتَّأَتْ فِي مَلَاكِيهِ مُمُكَّاحٌ بِرَمِيهِ اهْرَابِ لِيَتَّابِ إِذِ  
إِنِّي جَاعِلٌكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَئِنِّي نَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ.

كُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ يُفَسِّرُ بِعَضَائِهَا. وَإِنَّ مضمون الآية: (وَ كُلُّ شَيْءٍ أَحْمَدِي فِيهِ  
كِتَابًا) وَقَدْ فَسَّرَهُ الْإِمَامُ عَلِيٌّ (ع) فِيمَا يَلِي مِنْ أَبْيَاتِ ديوانه الشعري:

وَ تَحْسَبَ أَنْ نَنْكَرُ جِرْمَ صَغِيرٍ

وَ فَيُكَلِّمُكَ أَنْطَوَى الْعَالَمِ الْكَادِرِ

وَ أَنْتَ الْكِتَابُ الْمُبِينُ الَّذِي

بِأَحْرُفِهِ يُظَهِّرُ الْمُضْمَرِ

وَ إِنَّ الآيَةَ الْآخِرَةَ الْمَذْكُورَةَ أَعْلَاهُ تَصْرِيحٌ بِأَنَّ (الإمامة) لا يمكن أن يتواجد معها الظلم. وقال الإمام علي (ع) قولاً حكيماً مفاده أنه قد يوجد الملك مع الكفر ولكنّه لا يؤوّد مع الظلم. وقال وحي النبي محمد (ص): "وَ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ". فأن تأمين زوور الامن ونفي ظلمات الظلم من أهم مهام (الإمامة) في العالم. ونظراً إلى رسالة الأمن والسلام للنبي محمد (ص) فقد عرّفه (ع) الإمام علي (ع) بأنه أمن المؤمن المؤمن، والذي عرّفه القرآن الحكيم "برسول كريم ذي قوّة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين، المبعوث في بلاد المدين والذي قلابه منزل الروح الأمين بكتاب مبين والذي أمر أول وحيه بقراءة كل ما خلق رب العالمين باسم ربو بيته، ونطق بـ "نون والقلم وما يسطرون"، و"كتاب مسطور في رق ممشور" فمثل هذا الرسول (ص)، رسول الأمن والسلام، وبني الرحمة، ووسيلة المغفرة، وصاحب كوثر جوامع الكلام والعلم والحكم الباهرات، وقاسم الخيرات والبركات، ومغيث الغرباء واليتامى والمساكين والأرامل اليائسات، وصاحب (التعليم الأعلى) في الأرضين والسموات قد رسمت صورته في كتب السيرة والتاريخ كرسول الغزوات والمغامرات وفتح الأقاليم الأرضية (بدلاً من القلوب والأرواح) بالسيوف الشاهرات. وهكذا تم ارتكاب أفعال وأشنع المغالطات اختفت بها حقيقة الحق في غبار الحماقات والغباوات.

فيا للاعجب! فمن ثم هناك حاجة ماسّة ومُلحّة إلى إعادة النظر في هذه السلسلة من الإهمال والإغفال في مهمة تدوين السيرة النبوية والتاريخ في الإسلام، والقيام ببحث عميق ودقيق فيهما مميطاً للثام عن الحقيقة لإزالة الشكوك والشبهات والأوهام حول سيرة النبي (ص) حامل لواء الوحدة الإنسانية السباعية المتحدة الجهات.